

تطور الوعي

تأليف: فريدريك نيتشه

ترجمة وتقديم: د. جمال مفرج

جامعة منتوري . قسنطينة

إن النص "fragment" الذي نقدمه للقارئ الكريم هو للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه NIETZSCHE (1844-1900) وهو نص مأخوذ من كتابه "العلم المرح" أو "La gaya scienza".

ألف نيتشه هذا الكتاب حين انقطع عن الجامعة، وبدأ حياة التنقل. وقد ظهر سنة (1882)، أي في فترة التأليف الخصب التي سبقت انهياره العقلي. وهي الفترة التي تجاوز فيها مرحلة التأثر بشوبنهاور، وألف فيها "بشري، جد بشري" و"الفجر".

والمنطق، من جهة، ووجد المجتمع الوسيلة التي بها يؤسس نفسه، من جهة أخرى. فلكي يقوم مجتمع ما يحتاج، أولاً، إلى التفاهم، أو تبادل الرموز والإشارات. واللغة هي الوسيلة الأسرع لتحقيق هذا التبادل الذي يفترض "عقدا اجتماعيا". وهكذا فإن لخصائص الأساسية للوعي واللغة نشأت عن ضرورات عملية، أو اجتماعية، والجينيةولوجيا تعلمنا أنه في الانتقال من "الطبيعي" إلى "الاجتماعي" تصبح اللغة وسيلة لكل التبادلات أو المبادلات، وتجد نفسها محددة، وإلى الأبد، في إطار استعمالها، ومبعدة عن كل استقلالية.، ويجب أن نشير في الأخير إلى أن كتاب "La gaya scienza" قد ترجم إلى العربية مرة من طرف حسان بورية ومحمد الناجي وعنوانه بـ "العلم المرح" ومرة ثانية من طرف سعاد حرب وعنوانه بـ "العلم الجدل".

النص

"أن الوعي، بصفة عامة، لم يتطور إلا تحت ضغط الحاجة إلى التواصل - ولم يكن الوعي، منذ البداية ضروريا ونافعاً إلا وسط علاقات الإنسان بالإنسان، خاصة بين الذي يأمر والذي يطيع،

إن هذا النص الذي يحمل في الأصل عنوان "عن عبقرية النوع" هو، بلا شك من بين أهم نصوص نيتشه في نظرية المعرفة. فهو يصور لنا من جهة، جينيةولوجيا الوعي، ويصور لنا، من جهة أخرى، جينيةولوجيا اللغة، فمن جهة الوعي يخبرنا أن الحاجة إلى التفاهم، والقوة التي يعطيها التفاهم هما اللتان ساهمتا بقوة في تطوير الوعي والمنطق اللذين توضحا، شيئا فشيئا، بفضل التواصل عن طريق الرموز والإشارات. فالإنسان الذي يفكر بوضوح هو الإنسان الذي يتكلم. والوعي لا يظهر لنا الطبيعة الفردية للإنسان، بل يظهر الجانب الجماعي، فأن نعي أنفسنا ليس معناه أن نكتشف ما ينتمي إلى ذاتيتنا، ولكن معناه اكتشاف ما نقاسمه مع أمثالنا. إن أفعالنا ربما تكون فردية، ولكن وعينا لن يكون كذلك أبدا. وهكذا فكل وعي، وكل فكر منطقي، في المرحلة الحالية من التطور له طابع اجتماعي: فأن لا نفكر منطقيا معناه أننا نرفض التفاهم. وهذا الوعي أو التفكير الاجتماعي استشعر كفكر "حقيقي"، ومن جهة اللغة يخبرنا النص أن المفاهيم، من جهة أخرى، تسمح بواسطة التعبير اللفظي، بتواصل سريع بين البشر، أي أنه عن طريق اللغة تأسس الوعي

وكان يتطور تبعا لدرجة هذا النفع - ولم يتطور الوعي، إجمالا، إلا باعتباره شبكة من العلاقات بين الناس: ولربما استطاع الإنسان أن يستغني عنه لو عاش منعزلا، مثل وحش كاسر.... لقد كان الإنسان في حاجة الى مساعدة، وحماية، وكان في حاجة الى مثيله لأنه كان مهددا أكثر من غيره من الحيوانات. ولكي يعبر عن ضيقه كان يجب عليه أن يعلم كيف يكون مفهوما. أنه ولأجل هذا كله كان، أولا، في حاجة الى "وعي"، لكي يعلم ما كان ينقصه، وما يشعر به، وما يفكر فيه. إن الإنسان، ويجب التأكيد على ذلك، مثل سائر المخلوقات الأخرى، يفكر باستمرار ولكنه يجهل ذلك. والفكرة التي تصبح واعية إن هي إلا جزء بسيط هو الأكثر سطحية، والأكثر ضعفا - لأن هذه الفكرة الواعية هي، فقط، التي تنتج بالكلمات، أي برموز التواصل التي بها ينكشف أصل الوعي. وباختصار، فإن تطور اللغة وتطور الوعي (وليس العقل البتة) يسيران اليد في اليد.... وبالإضافة الى ذلك، فإن اللغة ليست وحدها التي تمد جسرا بين إنسان وآخر، بل وتفعل ذلك أيضا النظرة، والضغط، والحركة. أما فهم انطباعاتنا المحسوسة، والقدرة على تثبيتها ووضعها خارج ذواتنا، فقد تزايدت تناسبيا مع الحاجة المتزايدة لتبلغها للآخرين عبر إشارات. إن الإنسان المخترع للإشارات هو في الوقت ذاته الإنسان الذي يفهم (يعي) ذاته بشكل حاد أكثر فأكثر، ولم يتعلم أن يفعل ذلك إلا باعتباره حيوانا اجتماعيا -

ولا يزال يفعله مرة بعد مرة - إن فكرتي كما نرى، هي أن الوعي لا ينتسب في العمق الى الوجود الفردي للإنسان بل الى كل ما يجعل منه طبيعة جماعية. وقطعية، وهي أيضا أن الوعي كذلك، وبالتالي، لم يتطور بشكل دقيق إلا من حيث النفع الجماعي والقطيعي، وأن كل واحد منا، بالضرورة، ورغم إرادته في أن يفهم ذاته بصورة فردية قدر الإمكان، وفي أن "يعرف ذاته" لن يفعل شيئا سوى جلب ما هو غير فردي، وما هو "واسطة" لوعي -... إن أفعالنا (سلوكياتنا)، في العمق، شخصية تماما ولا نظير لها، وهي فريدة وفردية، بمعنى لا نهائي، وهو أمر لا يرقى إليه الشك، ولكنها تكف عن أن تبدو كذلك بمجرد ما نعيد ترجمة أفعالنا الى الشعور. تلك هي، في نظري، الظاهرية، المنظورية بمعناها الضيق: إن طبيعة الوعي الحيواني تتضمن أن العالم الذي يمكن أن نعيه ليس إلا عالما سطحيًا، وعالم إشارات، وعالما معمما، ومبتذلا - وأن كل ما يصير واعيا يجد نفسه للوهلة ذاتها مسطحا، ومقزما، ومختزلا الى حد بلاهة المقولب القطيعي. وهكذا فكل وعي يرجع جوهريا الى عملية تعميم وتسطيح وتزوير، أي، جوهريا، الى عملية إفساد."

NIETZSCHE, le Gai savoir, traduit par Pierre Klossowski, Coll.. "folio essais", Gallimard, paris 1989, Fragment 354.